بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

ضرورة هذا الدرس في عصرنا

تكلمنا في العدد الماضي عن المراد «بمقابلة الآداب» ، بعد ان حددنا الأدب ، وذكرنا الفوائد المتعددة الناتجة عن درس تاريخه درساً معقولاً . وها نحن نبدأ بشرح حاجتنا الماسة اليوم الى درس مقابلة الآداب ، اذا اردنا ان نبني نهضتنا العصرية على اسس ثابت يستند الى مبادئ الثقافة العامة ، فنطلع على منتوجات العقول الاجنبية المختلفة ، ونجاريها آخذين منها ما يفيدنا ، نابذين ما يؤخرنا في طريقنا ، او يشذ بنا عن غايتنا . وان هذه الحاجة تظهر من المقابلة التالية :

لنأخذ شاباً من اواسط المتعلمين في فرنسة مثلاً ، تاجراً يصرف وقته بتنضيد بضاعته وعرضها على الزبائن ؛ او وسيطاً تجارياً (قومسيونجياً) يقضي نهاره بين ادارة الجمرك والمخازن من كبيرة وصغيرة ، او مستخدماً في احد المصارف يُذيب دماغه فوق ارقام سوداء ، او موظفاً في احدى دوائر الحكومة ، سواء كان في العاصمة او في غيرها من المدن . ولنأخذ مقياساً للمعلومات . ولنفرض اننا تمكنا من قياس علم هذا الشاب ، الذي هو من اوساط المتعلمين في فرنسة ، فاذا نرى ؟

نرى اولًا ان في دماغه أسًا متينًا من تلك الثقافة العامة التي يلزم كلّ انسان ان يُتقنها ، كي يبني عليها في المستقبل ما يطمح اليه من قصور الآمال وصروح الاحلام . نرى انه قد درس كل مظاهر ادب أمّته على اختلاف عصورها ، ولم يكتفِ بذلك ، فأضاف الى الفرنساوية لغةً عصريةً ، هي الانكليزية او الالمانية عادةً ، والمَّ بشيء كافٍ من آدابها . نرى انه قد المَّ ايضًا بشيء لا بأس بهِ من آداب اليونان والرومان ؛ فهو ، على الاقل ، عارف بمن كان هوميروس ، وسوفوكل ، وڤرجيل ، وهوراس ، وغيرهم . وقد يكون قرأ بعض الشيء من منظوماتهم ؛ كما قد يكون قرأ الشيء الكثير من آثار دانتي ، وشكسبير ، وسرڤنتس ، وغوته ، وشلر ، وتولستوي ، سواء كان ذلك بلغاتهم او بالترجمات الوافرة في اللغة الفرنساوية .

ثم أتظنون ان ذلك الشاب ، اذا انتهى من عمله اليومي ، لا يفتح جريدته فيطّلع من خلال اسطرها على الحركة العامة في الكون من سياسية وعلمية وادبية وفنية ؟ وقبل ان ينام ، الا يفتح كتابه — سواء كان روايةً او اثرًا ادبيًا علميًا — فيغذي عقله بمنتوجات الكتّاب الحديثة .

ثمّ أترون ان ذلك الشاب ، اذا خلا برفقائه ، لا يتحدّث اليهم بما عرفه عن آخر مؤلفات هنري بوردو ، او پيير بنوا ، او من شئتم من الروائيين ؟ هذا اذا كان ميّالًا الى القصص فحسب . امّا اذا كان لديه بعض الطموح الى الادب ونقده ، افلا تتصوّرون انه يتناظر وإياهم في آراء پروست ، وكوكتو ، ومورياك ؟ الا تخالونه يبسط بشيء من الحماسة او البرودة ، طريقة پول كلودل او پول ڤاليري في النثر الشعري ، او آخر مجموعة شعرية لفرنسيس جامس ؟ او يحمل على نظرية بريونـد في الشعر الخالص ، او يدافع عن نظرية جوس في الانشاء الشفاهي ؟

هذا هو معدّل التهذيب العقلي في شابّ افرنسي منصرف عن الآداب في اعماله اليومية . ولم اذكر من معارفه الّا الوجهة الادبية وهي التي تهمّنا ، فضربت صفحاً عن العلوم والفنون والآراء الاقتصادية والسياسية وما تجرّه من الدروس والمعارف .

ولا تخالوا ان امثال هذا الشاب نادرو الوجود في فرنسة. لا لعمري بل هم عديدون ، ولم ابالغ اذ جعلتهم من اوساط المتعلمين فيها. والّا فكيف يمكننا شرح رواج الكتب والمطبوعات . ونحن اذا صرفنا النظر عن القصص المطبوعة بمئات الالوف والتي لا يهمنا امرها كثيراً ، نرى ان الكتب الادبية والفكرية ، حتى الغريبة بآراء مؤلفيها الغامضة ، تنفق بسرعة عجيبة . فلا تظهر رواية من قلم پول بورجيه — وفي ابسط رواية لبورجيه من الافكار والدروس ما يُعادل مضمون عشرة مجلّدات من كتبنا — حتى تُعاد طبعتها ؛ ولا يظهر كتاب لپول كلوديل — ومن قرأ شيئاً منهُ عانى ما يلاقيه المطالع من صعوبة تفهمه — حتى تندر نسخه ؛ وهذه مؤلفات برغسون الفلسفية بعضها في طبعاتها العشرين. وبعض ترجمات مؤلفات نيتشه ، الفيلسوف الالماني ، بلغت ما فوق الاربعين من الطبعات. امّا مؤلفات روستان الشعرية وما شاكلها فيلزم عدّ نسخها بمئات الآلاف وبانصاف الملايين.

ثم قد يكون ذاك الشاب ميّالاً الى الاستغراب اي محبة الشيء الغريب ، وهي كلمة اعرّب بها لفظة (exotisme) ، واكثر الفرنسويين ميّالون الى ذاك ، فيلتهم روايات پيير لوتي عن تركية ، وبعض الجزر المنفردة ، وما ينشره ارباب المكاتب اليوم عن الهند والصين وعادات سكّانهما . . . او يتلقف ما يعبث به فرنس توسّان من الشعر المنثور وينشره على انه مترجمٌ عن العربية ، ويُسرع الى اساطير ابنة هنري بوردو ومريم هاري وهما تطبعانها بموهمتين انهما عرفتا الشرق . والشرق من احدث الازياء الادبية في فرنسة.

هذا مجمل ما يظهر لنا من المأرف في دماغ شابّ من اوساط المتعلمين في فرنسة . وقد اطلت في وصفه قصدَ ان اظهر التفاوت بينه وبين مَن سأقابله به . فلنأخذ الآن عالماً من كبار علمائنا ، او من فحول شعرائنا ، او من مشاهير كتّابنا ، على شرط ان نفهم بلفظة « العالم » و « الشاعر » و « الكاتب » ما يفهم بهِ ارباب التنشئة القديمة في اللغة العربية ، اي اولئك الذين يضحّون المعاني على مذابح الالفاظ ، ويخنقون الحياة في نعش القوالب الفارغة ، ويحنطون الافكار في نواويس الجمود. لنأخذ عالماً او شاعراً او كاتباً من هؤلاء ، ولنقس

دماغه بقياسنا المعروف . فاذا زى ؟

قد زى قواعد كثيرة مفروضة مع جميع شواذاتها ، ومعلومات وافرة في تاريخ الآداب ونوادر الادباء ، وأحكاماً نقدية في قوالب مصوغة قد تكون رنانة وقد تكون طنانة . ولكنها جميعاً بعيدة عن الحياة لانها نشأت وماتت في بيئة واحدة ؛ لانها لم تتغذ بشيء من المغذيات الخارجية ، بل كانت تجتر وتلوك ما تجتره ، حتى قضت كما نشأت لم تنمُ ولم تنضج ؛ ولم يبقَ الّا قناعها الجافّ يحافظ عليه ارباب كأثمن ما يكون من الذخائر .

ولا تقف التنشئة القديمة في درس اللغة عند هذا الحدّ من المصائب ، وهي وحدها كافية للاقلاع عنها ، بل تتجاوزها الى نوع من ضيق العقل ، وجمود الذهن ، وقلة الذوق ، والسهو عن مواقع الكلام ، يرافقه لون من التعصب المذموم يدفع اهله الى الحطّ من شأن كل ادب غير عربي . وهو تعصبٌ حرَمنا الكثير من الفوائد في العصور الخالية فيجدر بنا ألّا نؤخذ به اليوم . تعصبٌ قيّدنا مئاتِ السنين الى منتوجات لغتنا وحدها ، نلوكها ونلوكها ، فلا هي تغذينا ولا نحن نسيغها . ونرى لغات الغير حرّة طليقة ، تتناول الموادّ من حيث وافقتها ، وتستعير الالفاظ من كل شعب ولغة . تعصبٌ ربطنا الى رحال الابل في باديةٍ قاحلة ، نسير بسيرها ونقف بوقوفها ، بينما كان الغير يمرّ بنا على سيّاراته مرورَ الطير ، ويزفّ من فوقنا بطيّاراته زفوفَ الريح ، فينظر الينا بزهو وإشفاق . اما نحن فنغمض عيوننا عن مرأى سرعته ، ونصمّ آذاننا عن أزيز مركباته ، ثم نمرّ ايدينا بحنوّ على مطايانا ، ونسوق اظعانا « نطوي البيد طيّ » وننشد باكين اطلالنا ودمننا ، فنسكر بتلك الذكريات ونقول : ليس في الكون مركبة الّا الناقة ، وليس عند الاعاجم ادبٌ وشعر .

شيعنا ، يا اسيادنا « الأعلام » ، من الذميل والوخد والإرقال . وليس بامكاننا بعد ان نصرف اربعين يوماً برفقة النجب والابكار والمها والاوعال حتى نصل الى بغداد . فنحن في عصر ضاق الزمان فيه عن مثل هذا العبث الفارغ . فاذا لم تجارِ الناس سبقونا الى محجّة الحياة ، وظللنا ننتدب الماضي ،

ونبكي من ذكر الاحبة والمنازل بين المرابض والاطان ... لا ! نحن بحاجة الى الحياة ، نحن بحاجة الى التجدُّد ، نحن بحاجة الى ادب يكون مرآة مجتمعنا والّا كان فاسداً ، سطحيًا ، وقتيًا ، كذلك الطحلب الذي ينبت بسرعة فوق الدِّمَن وفي الزوايا الرطبة ؛ ولكن ما هو انْ ترشقه اشعّة الشمس حتى يذوي ويتلاشى . نحن بحاجة الى الاحتكاك بالاعاجم ، نعم بتلك الأمم التي احتقرها العرب والتي لا سبيل لخلاص لغتنا اليوم الّا على يدها ، نحن بحاجة الى درس آدابها ، وتفهُّم اساليب الكتابة فيها ، حتى نخلّص آدابنا من الخمول ، ونطعم مؤلفينا اساليب الكتابة . نحن بحاجة الى السيّارة لنقطع بها تلك الأبعاد التي تفصلنا عن الحياة .

اما اذا شاء اسيادنا المحافظون ، المقلّدون ، المحتقرون كلَّ ما هو اعجمي ان يظلّوا متمسّكين باذيال إبلهم كي لا يحيدوا عن « الصراط المستقيم » فانّنا نؤثر لهم . فاماً ان يفسحوا لنا الطريق صاغرين ... واماً ... على ان هناك حلًا آخر : نقدّم لهم سيّاراتنا ، ونصعدهم فيها مع نوقهم وجمالهم . فيرضون ونرضى ...

من مثل هؤلاء النُّفُر على الادب العربي ، ومن مثل هؤلاء المحتقرين كلَّ ادب غير عربي ، يلزم ان نحذر في درس الادب العربي . ومثل هؤلاء النُّفُر وهؤلاء المحتقرين ، كثيرون لسوء حظ الادب العربي . ومثل هؤلاء ، كان يفكّر الدكتور طه حسين ، عندما كتب تلك المقدمة الجريئة لذلك الكتاب الجريء ، فقال :

« وكيف السبيل الى ان يُدرس الادب العربي درساً صحيحاً اذا لم تُدرس الصلة المادية والمعنوية بين اللغة العربية واللغات السامية ، وبين الادب العربي والادب السامي ؟ وهل هناك سبيل الى ان يُدرس الادب العربي دون ان تفهم التوراة والأناجيل ؟ وهل تظنّ ان بين شيوخ الادب في مصر من قرأ التوراة او قرأ احد الاناجيل ؟ وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغة اليونانية واللاتينية وآدابهما ... ولم تتبيّن مكانة ادبنا العربي بالقياس الى هذه الآداب اليونانية واللاتينية ؟ وهل تظنّ ان من شيوخ الادب في مصر

من قرأ إلياذة هوميروس واينياذة فرجيل فضلًا عن تمثيل الممثلين ، وغناء المغنين ، وخطابة الخطباء ، وحوار المتحاورين.

« أليس من شيوخ الادب في مصر من يعلّم طلّابه الآن ان ليس لليونان ادب ولا شعر ولا خطابة كما لأهل الضاد ؟ وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغات الاسلامية المختلفة ولاسيما الفارسية منها ، ونتبيّن ما كان لهذه اللغات وآدابها من تأثير في أدبنا العربي الذي لم ينشأ في برج من العاج وانما تأثر بالآداب المختلفة وأثّر فيها ؟ وهل تظنّ ان من شيوخ الادب في مصر من قرأ الشهنامة او المّ بشيء من شعر الخيّام او من شعر السعدي او الحافظ ؟ وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغات الاوربية الحيّة ونتبيّن تأثيرها في ادبنا الحديث ؟ ثم كيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم نأخذ بمناهج البحث العلمي الحديث وندرس آدابنا كما يدرس الفرنسيون والانكليز والالمان آدابهم ؟ . . .

«وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا كان الطالب يجهل ، كما يجهل طلّابنا وشيوخنا ، آيات الادب الاجنبي قديمه وحديثه ، هذه الايات التي أثّرت في حياة الانسانية كلها والتي تتلمّل العلم بها في طبقات الشعوب الغربية كافة .»[1]

هذا رأي اديب مصري كبير عانى درس الادب على شيوخه ، وعانى تدريسه ايضاً . فيتّضح من قوله انه اصبح من اللازم في عصرنا ، بل من الضروري ، مباشرة هذا الدرس الجديد المفيد الذي ندعوه « مقابلة الآداب».

(للبحث صلة)

١) الدكتور طه حسين : في الادب الجاهلي ، ص ١٢ - ١٤